الفصل الحادي عشر
الطباعة في الشرق الأقصى

إن ابتداء الطباعة في الشرق الأقصى يجب النظر إليها وعدُّها مستقلة تمام الاستقلال عن أصل الطباعة واختراعها في أوروبا. ذلك أن الكتب في الشرق الأقصى طبعت في وقت سابق على طبعها في أوروبا بحوالي ستة قرون. وكما أن الورق ظهر أول أمره في الصين، كذلك ظهرت الكتب المطبوعة أول ما ظهرت في الصين.

لقد تم طبع أقدم الكتب المطبوعة بالحفر على الخشب وذلك باعداد الواح خشبية حفرت بحيث برزت الحروف إلى أعلى وكذلك وسائل الايضاح. وكذلك تم اختراع الحروف المتحركة في الشرق الأقصى أيضاً قبل أن يخترعها غوتنبرغ Gutenberg بزمن طويل. ولكن يبدو أنه بسبب العدد الكبير من العلامات المنفصلة التي تحتاجها كتابة اللغة الصينية لم يكن بإمكان الحروف المتحركة أن تكون ذات نفع أو غناء في هذا المجال.

وحتى بعد أن تم اختراع الحروف المتحركة أهملت، لأنه كان أسهل أن تحفر على الخشب صفحة للرموز المقطعية؛ من أن تركب صفحة من الحروف المتحركة للأحرف المنفصلة المستقلة عن بعضها بعضاً.

أما في أوروبا ذات اللغات التي تكتب ألفبائياً فإن اختراع الطباعة تألف من اختراع عملية مرضية، وإيجاد طريقة عملية لانتاج الكمية المطلوبة والمرغوب فيها من الحروف المتحركة. ولذا فإن اختراع الطباعة في الصين كان عبارة عن اختراع طريقة للطبع بالحفر.

إن طباعة الأختام ظهرت في الصين منذ القرنين الخامس والسادس م،حيث كانوا يحفرون الأختام ويلوثونها بالحبر ثم يطبعونها على الورق. ولقد جرى الانتقال من حفر الاختام التي كانت تستعمل للتأكد من صحة الوثائق إلى حفر صفائح من الخشب لطبع الكتب أو الأكثر أهمية منها. وإن أقدم مثل على كتاب مطبوع بواسطة الحفر على الخشب وجد في اليابان وظهر فيها حوالي سنة ٧٧٠م.

كانت اليابان متأثرة بالنفوذ الصيني آنذاك كل التأثر، إذ أن الصين هي التي نشرت

البوذية في اليابان. وحدث أن تولى عرش اليابان بين سنتي ٧٤٨ و٧٦٩م إمبراطورة متحمسة كل التحمس لنشر المذهب البوذي فأمرت بطبع مليون نسخة من تعاليم بوذا على صفحة مستقلة لتوزع على الشعب وتم طبعها سنة ٧٧٠م. وقد اكتشف عدد من هذه الأوراق وبعض منها محفوظ في المتحف البريطاني في لندن. والورق المستعمل أقدم ورق صنع في اليابان.

ليس هناك شك أن الطباعة على الواح خشبية محفورة قد تم في الصين قبل اليابان بزمن طويل. وقد حكم الصين آنذاك أسرة تان المشهورة التي ازدهرت في عهدها الحضارة الصينية كل الازدهار ومنح حكامها الشعوب المحكومة الحرية الدينية المطلقة. وقد استغل دعاة البوذية المتحمسون هذا الوضع ونشروا تعاليم دينهم، وعظاً وارشاداً وخطابة وكتابة، ونشروا المواعظ والنصوص الدينية، ولا شك أنهم استعملوا طريقة الطبع بالحفر على الخشب لانتاج أكبر عدد من النسخ، وهذا سهل عليهم لوجود الورق لديهم.

ولقد اكتشف في تركستان ألوف وألوف من صور بوذا مرسومة بشكل مصغر على أوراق صغيرة طبعت عليها صورة بوذا بواسطة الأختام. ويبدو شبه مؤكد انتقال البوذيين من الختم الصغير الذي يضغط باليد إلى الصفحة الخشبية الواسعة المحفور عليها الحروف والرموز في القرن السابع أو الثامن ميلادي.

ولكن عصر التسامح زال من الصين حوالي سنة ٨٤٥م وحل محله عصر اضطهاد شديد فطورد البوذيون وهدمت معابدهم وازيلت آثارهم.

وإن أقدم تاريخ مؤكد وثابت للطباعة في الصين هو سنة ٨٦٨م. والبرهان على ذلك كتاب كامل مطبوع. اكتشف هذا الكتاب في صحراء تركستان وهو محفوظ الآن في المتحف البريطاني، وهو ترجمة صينية لما يدعي «لؤلوة سوترا». وهو أحد أشهر الكتب البوذية الدينية. وفي آخره نص يذكر أن الانتهاء من طبعه كان في الحادي عشر من أيار سنة ٨٦٨م وطبعه وانغ شيش Wang Chich تخليداً لذكرى والديه.

يدل أسلوب طبع هذا الكتاب على أن الطباعة بالحفر على ألواح الخشب قد مرت في فترة طويلة من التطور. ذلك أن أسلوب الحفر ووسائل الايضاح التي استعملت في طبع هذا الكتاب أسلوب متطور متقدم وليس أسلوباً بدائياً.

وقد اكتشف، في نفس المكان الذي اكتشف فيه كتاب «لؤلؤة سوترا»، ومعه عدد كبير

من الأدعية المحفورة على الخشب وثلاثة كتب. أحد هذه الكتب هو كتاب يعدُّ أقدم ممثل معروف لشكل جديد من الكتب. إنه كتاب صغير من كتب البوذية تاريخه سنة ٩٤٩م ومحفوظ في المتحف البرطاني. لقد طبع على وجه واحد من شريط طويل من الورق ولكن قسم النص إلى صفحات، ثم طوى الشريط على شكل الأوكورديون، ثم لصقت ظهور الصفحات البيضاء مع بعضها، وكانت النتيجة هي ظهور كتاب مشابه إلى حد كبير لشكل ومظهر الكتاب الحديث.

ولقد تبنت الحكومة الصينية حركة الطبع وجعلتها عملاً من أعمال الحكومة. وبدأت الحكومة منذ سنة ٩٣٢م بطبع مؤلفات كونفوشيوس فيلسوف الصين العظيم، وذلك رغبة من الحكومة في الحصول على نص صحيح مضبوط لهذه المؤلفات الخالدة، ومنع التزوير والأخطاء فيها، وحتى لا يبقى في البلاد إلا نص واحد هو النص المطبوع، وألفت لجنة لهذا الغرض واستمر العمل بهمة في المشروع حتى تم إنجازه سنة ٩٥٣م في ١٣٠ مجلداً. لم يبق لدينا شيء من هذه الكتب الكونفوشيوسية، ولكن الطباعة على ألواح من الخشب المحفور أصبحت هي السائدة.

ويوجد الآن أقدم الواح من الخشب المحفور استعلمت في الطباعة في الصين يعود تاريخها إلى سنة ١١٠٨م وهي محفوظة في أحد المتاحف في شيكاغو.

ولقد أثرت صناعة أوراق اللعب وانتاجها في تطور وانتشار فن طباعة الكتب عن الألواح المحفورة على الخشب. وأوراق اللعب ذات أصل صيني واستعملت منذ سنة ٩٦٩م وربما أبكر من ذلك.

وكان يتم الحصول عليها بوساطة الطباعة على ألواح محفورة من الخشب. ولقد انتقلت أوراق اللعب إلى أوربا في أواخر القرن الرابع عشر واستعمل في صنعها الطريقة نفسها.

لقد انتشر فن الطباعة الثابتة بالحفر على ألواح من الخشب شرقاً إلى كوريا واليابان، وغرباً نحو البلاد الإسلامية في أوروبا.

لقد حدث احتكاك واسع وتبادل مباشر بين أوروبا والشرق الأقصى زمن حكم جنكيزخان وخلفائه منذ أواسط القرن الثالث عشر حتى أواخر القرن الرابع عشر. وعلى الرغم من أن طبيعة هذا الاحتكاك كانت عدوانية وعنيفة، إلا أنه حدثت أيضاً اتصالات

ثقافية وتبادلات اقتصادية هامة. ولقد سقطت إمبراطورية المغول سنة ١٣٦٨م وأغلقت الطرق من جديد بين أوروبا وشرقي آسيا. والاعتقاد السائد هو أن الحفر على الخشب كطريقة للطباعة إذا كان انتقل إلى أوروبا عن طريق الشرق فيجب أن يكون ذلك قد تم حول ذلك التاريخ، ولكن لا يوجد براهين على ذلك.

كذلك اخترعت في بلاد الصين الطباعة بأحرف متحركة كما اخترعت الطباعة الثابتة بوساطة الحفر على الألواح الخشبية. إن الاختراع الصيني للحروف المتحركة قد سبق اختراع وتجارب غوتنبرغ بأكثر من أربعمائة سنة. وقد تم صنع الحروف من الصلصال المشوي لا المعدن. كذلك هناك سجلات تذكر صنع الحروف من معدن التوتياء.ولكن هذه الحروف وتلك المصنوعة من الصلصال لم تعط نتيجة مرضية، وظلت طريقة الطباعة الثابتة بالضغط على الألواح الخشبية المحفورة مستمراً. كذلك هناك رواية أخرى تذكر اختراع الحروف المتحركة من الخشب وقد تم اكتشاف بعض هذه الحروف التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر.

ينتقل اهتمامنا الآن إلى كوريا التي ازدهرت فيها الحياة الأدبية في القرن الرابع عشر تحت ظل أسرة يي YI . ونجد في الحوليات الكورية لسنة ١٣٩٢م ذكراً لتأسيس مديرية للكتب، من بين مسؤولياتها صنع الحروف المتحركة وطبع الكتب، ولقد بدأت مديرية الكتب عملها سنة ١٤٠٣م بعد شيء من التأخر. ولقد تم صنع بضع مئات الألوف من الحروف الطباعية. ولقد صدر بين سنتي ١٤٠٣ و١٤٥٥م أحد عشر مرسوماً ملكياً كلها تتعلق بمسائل الطباعة بالحروف الطباعية المتحركة.

ومما لا شك فيه أن عدداً كبيراً من الكتب تم طبعه في كوريا خلال هذه الفترة المجيدة من تاريخها، ولا يزال حتى أيامنا هذه عدد كبير من هذه الكتب موجوداً في مكتبات الأديرة الكورية واليابانية.

كذلك توصل الكوريون إلى صنع أحرف طباعية متحركة تمثل حرفاً واحداً لا مقطعاً، ذلك أنه دخلت إلى كوريا اعداد غفيرة من الكتب السنسكريتية والتيبتية ادخلها إليها الرهبان البوذيون، وازدهرت دراسة الاداب الأجنبية. وقد تعلم العلماء الكوريون قراءة الكتابات ذات الأحرف الهجائية، وأخيراً ظهرت إلى الوجود أبجدية كورية صوتية في النصف الأول من القرن الخامس عشر. ولقد تم صنع أحرف طباعية متحركة لهذه الألفباء،

وعندنا ذكر لكتاب وحيد جرى طبعه بهذه الأحرف سنة ١٤٣٤م.

ولقد زال فن طباعة الكتب بالأحرف الطباعية المتحركة في كوريا حوالي سنة ١٤٥٥م، ولكنه لم يلبث أن عاد إليها سنة ١٧٧٠م. كما وأن أول كتاب طبع في اليابان بأحرف متحركة كان سنة ١٥٩٦م ثم لم يلبث أن زال هذا الفن منها سنة ١٦٢٩م.

وعلى الرغم من أهمية ما تم اكتشافه واختراعه في بلاد الشرق الأقصى، فقد عجزت هذه البلاد عن نشر وتطوير هذا الاختراع، وذلك بسبب طبيعة كتابتها المقطعية التي تجعل من المستحيل تطويرها، وكذلك بسبب الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها تلك البلاد. وعلى الرغم من أن اختراع أوروبا للطباعة بأحرف معدنية متحركة قد حدث بعد اختراع الشرق الأقصى له بزمن طويل، إلا أنه لا يوجد أدنى دليل على أن أوروبا أخذت هذا الاختراع عن بلاد الشرق الأقصى أو تأثرت به. لقد عجزت بلاد الشرق الأقصى عن تطوير هذا الاختراع ونشره، ولكن أوروبا، بحروفها الهجائية تمكنت أن تحقق هذه الخطوة وفتحت بذلك عهداً جديداً في تاريخ الإنسانية الثقافي.